الصنف الثالث: الدعاة الذين هم علماء السلطان

هذا مصطلح قديم يُفهم معناه من لفظه، فهو إن دل على شيء، فإنما يدل على سوء الطَّوية، فهو ببساطة يعني توظيف الدين للحصول على مكانة عند السلطان، أوالترزق بالدين، أوأنه إخراج باطل السلطان في صورة الحق لكسب وُدِّ النظام، فغالبية هذا الصنف من الدعاة تكون لهم بدايات مشرقة في طلب العلم، وتحصيلِه، ونشره بين الناس، فيشرع النظام في التودد إليهم ليس حباً في العلم الذي عندهم، وإنما لتزيين صورة النظام بهم أمام المجتمع.

فكما أن النفاق لا ينشأ في الأمة إلا في زمن قوتها، فكذلك علماء السلاطين لا يظهر دورهم إلا في وقت انحراف الحكومات عن شرع الله تعالى، وإلا فإن كانت الحكومة عادلةً، فكل العلماء معها يؤيدونها تقرباً إلى الله لا تزلفاً.

فالأنظمة الفاسدة تحاول أن تُزيِّن صورتها أمام الشعب بذكر محاسن لا وجود لها، وبوعودات مستقبلية لا يلوح في الأفق ما يُثبتها، فتُجنِّد طاقاتها لإقناع الناس بذلك، وتستخدم جميع إمكاناتها حتى تظهر في صورة أنظمة عادلة، فتستهدف العلماء لتحقيق ذلك لما لهم من سمعة طيبة لدى الشعب.

ولأجل إيقاع العالم في الشرك يتم عرض الوظائف المرقومة عليه واحدة تلو الأخرى لأجل أن يقابل ذلك باحترام النظام، فيسكت عن تجاوزاته التي طالما كان العالم ينتقدها قبل توظيفه حرصاً منه على راتبه الذي يتقاضاه من النظام، فتحمده الحكومة على هذا الموقف الجديد، وتطالب بقية العلماء أن يكونوا مثله في اتخاذ ذلك الموقف الحيادي، ثم ينتقل بعد ذلك من الموقف الحيادي إلى موقف الدفاع عن الحكومة لأنه صار جزءاً منها يناله من النقد ما نالها، فيتعين عليه أن يدافع عنها، فدفاعه عنها هو دفاع عن نفسه، فيضع نفسه مع الحكومة في خندق واحد، إذ لا مفر له من الاحتماء بالحكومة حتى يستقوي بها ضد الشعب المتهجم عليه بحيث يتعرض للإهانة والنقد علناً من المجتمع لسقوط هيبته وكرامته، فيحمله ذلك مزيداً من الاستسلام والرضوخ لمطالب الحكومة حتى يكون على استعداد تام للتبرير عن أيِّ موقف تتخذه الحكومة، ولوكان ذلك على حساب ثوابت الدين وكلياته، فليس له هم إلا الدفاع عن سياسات الحكومة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

فتزلفاً منه إلى السلطان يتفانى في اختراع الألقاب والأوصاف ما لا يخطر ببال أحد منهم، والحكومات تَعرف قبل غيرها أنها ليست كذلك لكنها لا تمانع لأنها بحاجة إلى تلك التلميعات، ولو كانت زائفة، فقد يغترُّ بها بعض العوام من البسطاء والرَّعَاع الذين يُصفقون لكل مُطبِّل لتستخدمهم في وجه المعارضة ولتقول لهم: إذا كنتم تعارضوننا فهناك من الشعب من يؤيدوننا، فليس لكم أيتها المعارضة أن تفرضوا رأيكم على الجميع، وبذلك تظهر الحكومة عقلانية.

فعلماء السلطان يدسون السموم في العسل، فيتسترون وراء النصوص الشرعية، ويتصبغون بصبغة الدعوة إلى الله، فيلتبس أمرهم على عامة الناس، فإذا كان كتمان العلم ينتهي بصاحبه أن يُلجم بلجام من نار، فكيف بمن يستخدم العلم الشرعي أداة للتغطية على الفساد، فإن الله تبارك وتعالى أنكر على أهل الكتاب بخلطهم الحق بالباطل، فكيف بمن يقلب الباطل الصرف حقاً، ويحمل الناس على الإذعان له، والقبول به مستقوياً عليهم بقوة السلطان.

قد يصل ببعضهم التلاعب بالدين إلى حد الكفر، فيُحرِّفُون كلام الله على عمد، إذا التحريف للنص إما أن يكون في اللفظ، أو المعنى، فتحريف المعنى هو تنزيل النصوص من الكتاب والسنة على غير مراد الله مع العلم والقصد، بل لو أن الحكومة أقدمت على تبديل الإسلام إلى النصرانية مثلا لبادر عالم السلطان إلى الدفاع عن ذلك الموقف بحجة أن ذلك اختلاف العبارات، وأن الأديان كلها وسائل تؤدي إلى نفس الهدف، فبأيها أخذ الإنسان أوصلته إلى الهدف المنشود، وعليه فلا مانع من الانتقال من دين إلى دين، ولكن جرت سنةُ الله في خلقه أن يكشف للناس عن حقيقتهم قال تعالى:{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}

إن علماء السلطان يُصرِّون على تبرير الفساد مع علمهم بعواقبه الوخيمة المؤدية إلى خراب الدارين، ولا يسلم منه علماء السلطان أنفسهم بل هم أول من يكتوي بناره قبل غيرهم، فلانعدام الوازع الديني لديهم لا يشعرون بخجل أن يُقرِّروا اليوم ما نفوه أمس غير مبالين بعواقب ذلك على سمعتهم، لأنه فقدوا الأمل في العودة إلى الوراء، فليس أمامهم إلا الاستمرار في ذلك الطريق الذي اختاروه لأنفسهم من مغازلة الحكومة.

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

وأكبر مصيبة تحُلُّ بهذا الصنف من دعاة السلطان أن الحكومات إذا أدركت أن سمعته قد تلطخت بسبب التزلف، وأن الشعب قد لفظهم ورماهم بحيث لم تَعُد لفتاويه أيُّ قيمة في المجتمع تضطر الحكومة هي الأخرى أن تتخلى عنه لأنه يصير عبئاً ثقيلاً عليها، فالحكومة التي كانت بالأمس القريب تتودد إليه لتستفيد من سمعته صارت اليوم تتضرر به، فتنأي نفسها عنه شيئاً فشيئاً حتى يحصل الطلاق البائن بينها وبينه.

وبعد طرده من جناب الحكومة يحاول أن يعود عالم السلطان إلى الخلف ليسترد سمعته السابقة عند الجماهير، فيتظاهر أنه هو الذي ترك الحكومة لفسادها، وليست هي من تركتْه ليتخذ بذلك عذراً عندها من جديد، ولكن هيهات، فقد ضيع اللبن في الصيف، فالشعب لن يُخدع بأمثال هؤلاء مرةً ثانيةً، فإذا لم يجد جهة تقبله يضطر أن يركن للعزلة، وأن يعيش بقية حياته في غياهب النسيان والضياع إلى الأبد، فلا دين بقي له، ولا دنيا حصل عليها، فكانت عاقبة أمره خسراً.

وهذه عبرة لكل علماء السلطان إذ من الحماقة أن يسير الإنسان في نفق انتهى بمن قبله إلى طريق مسدود، فالإنسان مأمور أن يعتبر بغيره، فإذا كان الخسيس هو من باع دينه بدنيا غيره، فأخس منه علماء السلطان لأنهم باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

إن العالم الذي يُسخِّر جهده، وعلمه لتزيين النظام القائم وزخرفته ليُقنِع به الآخرين في وجه المصلحين، مثلُه في ذلك مثلُ إنسان يهدم سقف البيت الذي يستظله على رؤوس ساكنيه لكنه حين القيام بعمله ذلك يُظهر لهم أن صنيعه هذا في البيت لإصلاحه، هذا هو الحاصل في الأنظمة الاستبدادية للأسف الشديد تُسكِّت أصوات الناصحين، وتقمع المحايدين، فلا يبقى معها إلا المطبلون المتنفعون، فمازالوا يُمجِّدون النظام، ويرفعونه فوق المساءلة حتى يَظُن النظام أنه فعلاً هو في ذلك المستوى من القداسة، والنزاهة، فيعتقد أنه ليس بحاجة إلى مراجعة نفسه من أجل الوقوف على موضع الخلل، فيستمر الوضع على ذلك ردحاً من الزمن، فتتراكم الأخطاء المميتة عليه حتى تتداعى أركانه للانهيار والسقوط، فيحاول النظام إيقاف ذلك، فلا يستطيع لأن الوقت قد فات فقد وصل إلى نقطة لا عودة منها، وعندئذ يدرك أن هؤلاء المطبلين هم من خدعوه

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional

بالألقاب والأوصاف المضللة التي شغلته عن رؤية الحقيقة، فينتقم منهم أشـــدَّ انتقـــام، ثم يذهب ذلك النظام والداعية المطبل معا إلى مزبلة التاريخ.

بقلم الدكتور/ عمر إيمان أبو بكر

Created with nitroPDF professional
download the free trial online at nitropdf.com/professional